الشيطان والمرأة:
الغزالي وقراءة زرادشتية للقرآن

دوروتيا كرافولسكي

يشغل موضوع المرأة في المجتمع الإسلامي، مكانتها، وأدوارها، وحرياتها، وحقوقها، كثيراً من الكُتّاب العرب والمسلمين، منذ نهايات القرن التاسع عشر وحتّى اليوم. وتتخذ النقاشات حول المسألة طابعاً حادّاً يضعها ضمن الموضوعات الأكثر إثارةً للجدل والخلاف في العالمين العربي والإسلامي.

ظهرت أُولى المحاولات الأكثر جرأةً وإثارةً للجدل في موضوع المرأة عام 1899 بعنوان: «تحرير المرأة» للكاتب المصري قاسم أمين (1863 ـ 1908)(1). ذهب قاسم أمين والإصلاحيون التحديثيون الآخرون من مثل التونسي الطاهر الحدّاد إلى أنّ المجتمعات الإسلامية ستبقى عصيةً على الإصلاح والتحديث ما دامت المرأة المسلمة ـ وهي نصف المجتمع ـ ضحيةً للأمية والاحتجاب واهتضام الحقوق الإنسانية؛ خضوعاً لأخلاقيات وعادات عصور الانحطاط والظلام.

ووجدت هذه الأفكار حول تحرير المرأة تأييداً في المجال الإيراني من جانب رضا شاه بهلوي (حكم إيران بين 1925 و1941) الذي أقدم على تطبيق

---

(1) قاسم أمين: تحرير المرأة، مصر، 1899م، والمرأة الجديدة، 1900م. وانظر عن جهود الطاهر الحدّاد بتونس كتابه: إمرأتنا في الشريعة والمجتمع، تونس 1930. وقارن عن الرجلين وقضية المرأة المسلمة؛ فهمي جدعان: أُسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، المؤسسة العربية ببيروت، 1981، ص 464 ـ 479، 486 ـ 488.

الكثير منها في المجال الاجتماعي. فقد كان رضا شاه عميق الاقتناع بضرورة إضعاف سطوة طبقة رجال الدين الإيرانيين كجزءٍ من عملية التحديث للمجتمع والدولة بإيران. إلى ذلك تشير حركةٌ رمزيةٌ قام بها في البداية، في حفل تتويجه في 15 أبريل 1926 عندما أخذ التاجَ من يد رجل الدين الإيراني الذي كان يحمله، ووضعه بنفسه على رأسه[1]؛ معلناً بذلك قيام مَلَكيةٍ عصريةٍ عَلْمانيةٍ؛ لكنها مَلَكيةٌ مطلقةٌ استبدادية. مع الشاه رضا بهلوي إذن مضت عملية التحديث على قدمٍ وساق. وفي عهده فقد رجال الدين الإيرانيون نفوذهم وتأثيرهم إلى حدٍّ بعيدٍ في مجالين مهمَّين؛ **الأول**: التشريع والقانون والنظام القضائي ـ **والثاني**: النظام التربوي الذي انتزع الشاه منهم احتكارهم له. فقد فرض الشاه التعليم الإلزامي في المراحل الأساسية، كما أسَّس جامعاتٍ ببرامج تعليمية عصرية. أمّا في المجال القضائي فإنّ الشاه أنشأ نظاماً مدنياً أفاد فيه من محاولاتٍ سابقةٍ في إيران، ومن النموذج التركي[2].

عام 1936 أصدر الشاه أمراً بمنع الحجاب[3]. بيد أنّ طرائقه الدكتاتورية في

(1) M. Reza Ghods: Iran in the Twentieth Century. A Political History. London 1989. p. 98. ومصدر هذه المعلومة مذكرات مهدي قولي هدايت: خاطرات وخَطَرات، تهران، 1965، ص 425.

(2) قارن عن تحديث مؤسسة القضاء بإيران الدراسة الأساسية في ذلك: Amin Banani: The Modernisation of Iran 1921-1941. Stanford 1961. يكتب بناني في الفصل الخامس من الدراسة عن «النظام القانوني الجديد» ما يلي: (ص 68ـ 84 وبخاصةٍ ص 70): «جرى إلغاء وزارة العدل القديمة في مطلع العام 1927. وفي السادس والعشرين من إبريل من العام نفسه تسلّم موظفون جدد، الذين تلقى كثيرون منهم تعليماً أوروبياً حديثاً، إدارة الشؤون القضائية، من الموظفين الشيوخ السابقين. .». وانظر عن إصلاح النظام التربوي الكتاب نفسه، الفصل السادس (ص 85 ـ 111) بعنوان: «الإصلاح التربوي».

(3) بمناسبة هذا الحدث «التاريخي» في حياة المرأة الإيرانية نَظَمت الشاعرة الإيرانية المعروفة پروين اعتصامي (1906ـ 1941) قصيدتها بعنوان: زن در إيران (المرأة في إيران). قارن بديوانها: ديوان قصائد ومثنويات، الطبعة الخامسة، 1341/ 1962، ص 153 ـ 154، رقم 118.

إسقاط الحجاب حوَّلت المسألة من «فرض الحجاب» إلى «فرض منع الحجاب»! فقد كان من ضمن إجراءات فرض السفور على النساء طرد النسوة من وظائفهنَّ في الدولة والإدارة إن رَفَضْنَ السفور. كما أنه صار ممنوعاً على النساء المنقَّبات استخدام وسائل النقل العامة. وقد دأب الشاه على تنظيم حفلات ساهرة ومناسبات كان يدعو إليها كبار الموظفين ورجال الدين؛ وكان على هؤلاء أن يظهروا مع زوجاتهم سافرات. وتُروى عن هذه الفترة أقاصيص وطرائف حول احتيال الإيرانيين على إجراءات النظام التي كانوا يعتبرونها معاديةً للإسلام؛ من مثل حَمْل النسوة في أكياس عندما كنَّ يضطررن للخروج من منازلهن. ولا يقتصر الأمر على الحكايات والطرائف بل إنّ الكاتب الإيرانيّ المعروف جلال آل أحمد (1923 ـ 1969) يُورِدُ في سيرته الشخصيّة ـ وهو ابنٌ لأسرة من رجال الدين[1] ـ ضمن ذكرياته عن تلك الحقبة أنّ والده اضطُرَّ يومها لبناء حمّام للنساء داخل دار الأسرة حتّى لا يُضطررن للسفور إذا أردْنَ الخروجَ إلى الحمَّامات العامّة[2]. وعندما كان الوالد يُدعى إلى حفلٍ عند الشاه فإنه كان يعمد للعقد عقداً مؤقَّتاً (زواج متعة) مدته أربعٌ وعشرون ساعة على إحدى النساء المتحررات فتظهر معه في الحفل لكي لا يعرِّضَ نساءَهُ لعار الظهور سافراتٍ وفي حفلٍ عام[3].

وتابع ابن رضا شاه وخليفته على العرش محمد رضا (1941 ـ 1979) برامج والده التحديثية وبخاصةٍ فيما يتّصل بتحرير المرأة الإيرانية بحسب فهمه لذلك. ففي العام 1963 أصدر الشاه قانوناً جديداً للأحوال الشخصية أعطى المرأةَ فيه للمرة الأولى حقَّ الطلاق، وأَعلن عن نيّته إعطاءَها حَقّ التصويت. وكانت تلك هي

(1) أنظر عن جلال آل أحمد بشكلٍ عامٍّ: دهباشي، علي: يادنامة جلال آل أحمد. تهران 1985، Mirahmadi, Maryam: Analyse der Werke Ǧalāl-e-Āl-e Ahmads unter Berücksichtigung sozialer Aspekte, Diss. Berlin 1977.

(2) أنظر عن ذلك؛ آل أحمد، شمس: أزچشمه برادر. كتاب سعدي، قم 1990، ص 175.

(3) أنظر عن ذلك: Iranian Society. An Anthology of Writings by Jalal Al-e Ahmad. Ed. M. C. Hillmann, Lexington 1982, p. 20.

المناسبة الأُولى التي أَعلنَ فيها آيةُ الله الخُميني احتجاجه ومعارضته، واتّجه للرأي العامّ منظماً تظاهُراتٍ ضدّ إصلاحات الشاه؛ وهي الأحداثُ التي عُرفت بثورة يونيو (قيام خرداد) في تاريخ إيران الحديث[1]. وقد أجاب الشاه على الاحتجاجات بعنفٍ دامٍ، وأقدم على اعتقال الخميني لمدة شهرين[2]. لكنه ما لبث أن نفاه عام 1964 على أثر اتهامه الشاهَ بالخيانة عَلَناً عندما منح هو والبرلمان المستشارين الأميركيين الحصانة الديبلوماسية[3].

إلى أين أدَّت هذه الإصلاحات بالمرأة الإيرانية؟ إنه السؤال الذي طرحه الكاتبُ الإيرانيُّ المعروف رضا براهني على الرأي العامّ الإيراني بعد مُضيّ نصف قرنٍ على بدايات الإصلاح في قضايا المرأة، وحاول الإجابة عليه في دراسةٍ له ظهرت عام 1972 بعنوان: «التاريخ الذكوري: نظرةٌ في عِلَل الانحطاط الثقافي الإيراني»[4]. تساءل براهني في الدراسة عن تطور شخصية المرأة الإيرانية والمتغيرات التي طرأت عليها في ظلّ الظروف الجديدة. وتوصل إلى استنتاج مؤدّاه أنّ المرأة الإيرانية المعاصرة هي انعكاسٌ مظهريٌّ سطحيٌّ للمرأة الأوروبية. أمّا لماذا حدثَ ذلك؟ فإنّ براهني يرى أنّ ذلك يعود إلى الافتقار للنموذج التاريخي الثقافي الذي يمكن أن تؤسِّس عليه المرأةُ الإيرانيةُ استقلاليتها، كما يمكن أن تستند إليه في فهم دورها في المجتمع

(1) أنظر عن ردود الفعل الإيرانية على تحديثات الشاه: Gottfried Herrmann: Die Karavane der Wissenschaft und des Fortschritts - Zur Auseinandersetzung iranischer Intellektueller mit der Europäisierung ihres Landes unter der Shah Herrschaft; In: Asien Blickt auf Europa, Hrsg. T. Nagel, Beirut 1990, pp. 89-117.

(2) Ervand Abrahamian: Khomeinism, Essays on the Islamic Republic, Berkeley 1993, p. 10.

(3) Ervand Abrahamian; op.cit. 10-11. وانظر خطاب الخميني بتلك المناسبة؛ في: Hamid Algar: Islam and Revolution: Writings and Declarations of Imam Khomeini. Berkeley 1981, p. 181 - 188.

(4) رضا براهني: تاريخ مذكر: عِلَل تشتت فرهنگ در إيران. تهران 1972، و Reza Barahani, Der Clan der Kanibalen, Mϋnchen. 1979, p. 67.

الإيراني. ذلك أنّ المجتمع الإيراني مجتمعٌ يسودُهُ الرجال، وليس للمرأة أثرٌ فيه لا في التاريخ، ولا في الأدبيات أو الثقافة[1].

هذا الرأي الذي أكّده الكاتب الإيراني براهني، دفعني لتتبُّع صُوَرِ المرأة في أدبيات إيران الإسلامية: فهل صحيحٌ ما ذهب إليه براهني من أنّ المرأة الإيرانية ألغاها «المجتمع الذكوري» أو «مجتمع الرجال» أو أنه نحّاها جانباً إلى زاويةٍ مظلمةٍ من زوايا المجتمع والتاريخ؟! فحتى في شِعر الغَزَل كان على المرأة الإيرانية أن تتنحّى لصالح «غلام تركيٍّ» أو لصالح مصطلحٍ مُحايد مثل «الحبيب»[2]. وفيما يلي من فقراتٍ سأُحاول أن أَعرضَ لجانبٍ من صورة المرأة عند أبي حامد الغزالي (ـ 1111) أهمّ علماء الكلام في إيران الإسلامية، والأكثر تأثيراً في مجال الثقافة الإسلامية في العصور الوسطى المتأخرة.

* * *

يقتضينا الموضوع الذي نحن بصدد معالجته أن نعرض ولو بِشيءٍ من الإيجاز لأُسطورة الخَلْق في الزرادشتية الإيرانية، وموقع المرأة في تلك الأسطورة[3] قبل أن نعالج المسألة في الإسلام وعند الغزالي.

تقول الديانة الزرادشتية القديمة التي ظهرت في شرق إيران بإلهٍ أعلى، تجري مخاطبته والدعاء له من جانب المؤمنين باعتباره «السيِّد الحكيم» (أهورامزدا). وعن هذا الوجود الإلهي السامي يصدر روحان توأمان: الروح الطيّب أو الخيِّر (سب

---

(1) رضا براهني، مصدر سابق، ص 86 ـ 89. يقول براهني على سبيل المثال (ص 86 ـ 87): «لا جذور للمرأة الإيرانية في الثقافة الإيرانية. فقد كانت الثقافة الإيرانية الماضية مكتوبةً للرجال من جانب رجال... أما «الصورة المثالية» للمرأة اليوم فهي صورةٌ غربيةٌ تماماً. وربما من أجل ذلك بقيت سطحيةً، لا معنى لها، مأخوذة عن كليشيهات هوليود وأفلامها للمرأة المستهترة التي تحيا حياةً سهلة...».

(2) رضا براهني، مصدر سابق، ص 15 ـ 16.

(3) استندتُ في تصوير أسطورة الخَلْق الزرادشتية إلى دراسة:

Geo Widengren: «Das Prinzip des Bösen in den östlichen Religionen»; In: Das Böse. Zürich 1961. p. 25-61.

نتامانيو)، والروح الخبيث (أرا ماينيو). وهذان الروحان اللذان يُمثّلان جانب القدرة على الخَلْق من الإله الأعلى يقومان بخَلْق الكون. وفي عملية الخلق تلك يخلق الروح الطيّب الجانب الخيِّر من الكون، والروح الشرير الجانب الخبيث. وينشب صراعٌ كونيٌّ دائمٌ بين العالَم الخيِّر والعالَم الشرير إلى أن ينتصر في النهاية الجانبُ الخيِّر.

ثم حدثت تطوراتٌ في الزرادشتية المتأخِّرة أتت من غرب إيران بتأثيرٍ من الزروانية؛ تحوَّل بمقتضاها الجانبان المتمايزان من صفة الخَلْق في الإله الأعلى إلى وجودين إلهيين منفصلَين. فصار الإله الأعلى (السيّد الحكيم) المسمَّى أهورامزدا خالقاً للجانب الخيِّر من الكون وحسب واسمه أورمزد، والروح الشرّير التوأم (أرا ماينيو) خالقاً للجانب الشرّير من العالَم باسم أَهْرِمَنْ[1]. وفي هذه الصيغة الحديثة نسبياً من الزرادشتية الآتية من غرب إيران أصبح إله الشرّ أو مبدؤه ذاتاً بالغة القوة، والاستقلال. بل إنه صار شبه متفرِّدٍ بالسيطرة في العالم. لكنه كسائر القوى المسيطرة يحتاج إلى وسائل وأدوات لبسْط سلطته: فما هي الأداة أو الأدوات التي يستخدمها أهرمن لتسيير الإنسان حسبما يرغب ويريد؟ والجواب على ذلك في زرادشتية غرب إيران: إن أداته الرئيسية لإضلال الصالحين هي الغريزة الجنسية والشهوة (أز) ممثَّلةً في المرأة[2].

كانت المرأةُ في الزرادشتية القديمة الآتية من شرق إيران ضمن الجزء الخيِّر من العالَم المخلوق، ومن صنع الروح الطيِّب. أمّا في الزرادشتية الآتية من غرب إيران فيما بعد، وتحت تأثير الزروانية؛ فإنّ إله الشرّ ازدادت قوته واتّسعت سيطرته، وكان من ضمن ذلك الاتّساع ترحيل المرأة من عالَم الخير إلى عالَم الشرّ؛ حيث صارت هناك أداة أهرمن الرئيسية في الإضلال[3]. ويبدو أنّ الأمر كان أسوأ بالنسبة للمرأة في الزروانية. ففي تلك الديانة كانت المرأة متجذِّرةً منذ البداية في ذلك

(1) Geo Widengren, ibid. p. 39-41, 46-47.

(2) Geo Widengren, ibid. p. 49-50.

(3) Geo Widengren, ibid. p. 49-51.

الجانب من العالم الذي خَلَقه إله الشرّ. وقد وضع «صاحبُ الزمان» (إله الشرّ) المرأةَ في خدمته بما تُمثلُهُ من شهوةٍ جنسيةٍ مُضِلّة. بدأ ذلك بدورها في إضلال الإنسان الأول، ثم في الاستمرار في ذلك بين أعقابه[1].

* * *

ودخل الإسلام إلى إيران فغيَّر من أَوضاع المرأة تغييراً جذرياً؛ وكان التغيير لصالحها. ظهر ذلك التغيير بسرعةٍ وبشكلٍ محسوسٍ في المسائل المتعلِّقة بإمكانيات المرأة وأوضاعها القانونية. ففي النظام القانوني بإيران قبل الإسلام، وفي عهد الساسانيين بالذات (328 ـ 641) أُعطيت المرأة وضعاً مُشابهاً لأَوضاع الرقيق. وهكذا فقد كانت في القانون الساساني موضوعاً للقانون وليست شخصيةً مستقلَّةً ذات وضع قانوني[2]. أمّا في الفقه الإسلامي فإنّ المرأة ذات شخصيةٍ قانونية معتبرة. فهي ذاتُ حرَّةٌ، تتمتَّعُ بحقّ التملُّك والتصرُّف والتعاقد في سائر مجالات التجارة المشروعة[3]. لكنّ الأهمّ من ذلك صورتها في مجال الخَلْق والمُساواة الإنسانية، والتناظر مع الرجل نتيجةً لذلك في الحقوق والواجبات. في هذه المجالات يعرض القرآن للمرأة صورةً مختلفةً تماماً عن تلك التي كانت لها في الزرادشتية المتأخرة كما عرضْنا لها سابقاً.

* * *

الشرّ كَذَاتٍ قويةٍ، ووجودٍ مستقلٍّ مسيطر، يعمل في الظلام، في المواطن والمجالات الخفيّة في العالم، مستخدماً قدرته السحْرية في التخريب والإضلال؛

---

(1) Geo Widengren, ibid. p. 51-52.

(2) Christian Bartholomae: Die Frau im sassanidischen Recht. Heidelberg, 1924.
وفي كتاب قانون من العهد الساساني المتأخر تبدو صورة المرأة أقلّ قتامة لكنّ المعالم الأساسية لوضعها السلبي باقية؛ قارن: Maria Macuch: Das Sasanidische Rechtsbuch «Mātakdanw I Hazār Dātistān (Teil II). Wiesbaden 1981. p.6-13.

(3) قارن على سبيل المثال بالوثائق الواردة عند:
Samuel D. Goitein: A Mediterranean Society, Vol 3 «the familie» esp. «Women in economic life» (p. 324 - 332).

هذا الشكل من أشكال الشرّ، لا وجودَ له في القرآن.

فالشيطان في القرآن (إبليس) هو مَلَكٌ ارتكب المعصية فطُرِدَ من عالَم الملكوت لأنّ لعنة الله أصابته. وخروج الشيطان من عالَم الرحمة إلى عالَم اللعنة، يقترنُ به وجودُ النار أو الجحيم ذلك أنَّ إبليس هو الأول بين مخلوقات الله التي تدخل النار يوم القيامة[1]. تمثّلت معصيةُ إبليس التي جرَّت إلى لعنة الله له في رفضه الخضوعَ لأمر الله له بأن يسجد لآدم، الإنسَان الأول. وقد عَلَّل الشيطان عدمَ سجوده بالقول كما ورد في القرآن[2]: ﴿قال ما منعك ألاّ تسجد إذ أمرتُك قال أنا خيرٌ منه خلقْتَني من نارٍ وخلقْتَهُ من طين﴾. وبذلك فإنّ سقوط الشيطان سببه الكبرياء. هكذا أصبح الشيطان عدواً للإنسان. فهو مصمِّمٌ على أن يثأر لنفسه من هذا الكائن الذي كان سببَ شقائه وذلك عن طريق الوسوسة له من أجل إضلاله فيدخلَ النارَ مثل الشيطان تماماً.

من هنا نعلم أنّ الشيطان في القرآن، بخلاف الزرادشتية المتأخِّرة، ليس قوةً مستقلةً، تكاد تكون نِدّاً لله. بل هو في القرآن عبدٌ من عبيد الله، عصى الله مرةً واحدةً فحسب، وعوقب باللعنة والسقوط، وهو يحاول أن ينتقم لنفسه من الإنسان الذي يعتبِرُهُ سببَ بلائه.

وكما تختلف قصةُ الخَلْق في القرآن عنها في الزرادشتية من حيث رؤية الإنسان الأول، ورؤية الشر؛ فإنها تختلف أيضاً عنها في «العهد القديم» من

(1) أنظر عن الرؤية الأخلاقية في القرآن: Bouman, Johan: Gott und Mensch im Koran. Darmstadt 1977; Tashishiko Izutsu: Ethico - Religious Concepts in the Qur'ān. London 1966; Fazlur Rahman: Major Themes of the Qur'ān 1980.

وفيما يتصل بآدم قارن بدراسة:

Cornelia Schöck: Adam im Islam: Ein Beitrag zur Ideengeschichte der Sunna, Berlin 1993, p.123-125. بل إنّ أكثر علماء الكلام من الأشاعرة يعتبرون آدم معصوماً بعد التوبة لأنه صار نبياً؛ قارن بالدراسة السالفة الذكر، ص 126ـ 132.

(2) سورة الأعراف/ 12.

حيث تعليل سبب خروج آدم من الجنة. فالقصة القرآنية للخَلْق وللخروج من الجنَّة تملك هدفاً أخلاقياً محدَّداً يتمثَّل في تصوير تلك الثُّنائية بين الكفر والمعصية من جهة، والإيمان والطاعة من جهةٍ أخرى. فالمعصية تقود إلى الضلال، والضلال يقود إلى الكفر. في حين تؤدي الطاعةُ إلى الإيمان والتقوى والهداية وتلك السبيل هي سبيل الجنة[1].

إنّ قصة الخَلْق التي يوردُها العهد القديم بتفصيلٍ كبير تَرِدُ في القرآن على النحو التالي[2]: ﴿ولقد عهِدْنا إلى آدمَ من قبلُ فَنَسِيَ ولم نجدْ له عزما وإذ قلنا للملائكة اسجُدوا لآدمَ فسجدوا إلاّ إبليسَ أبى. فقلنا يا آدمُ إنّ هذا عدوٌّ لكَ ولزوجِكَ فلا يُخْرِجَنَّكُما من الجنَّةِ فتشقى. إنّ لكَ ألاّ تَجوعَ فيها ولا تَعرى. وأنَّك لا تظمأُ فيها ولا تَضْحَى. فوسوس إليه الشيطانُ قال يا آدمُ هل أَدُلُّكَ على شجرة الخُلْدِ ومُلْكٍ لا يبلى. فأكلا منها فبدتْ لهما سوْءاتُهُما وطفِقا يخصِفانِ عليهما من وَرَقِ الجنَّةِ وعصى آدمُ رَبَّهُ فغوى. ثم اجتباهُ ربُّهُ فَتَابَ عليه وهدى. قال اهبطا منها جميعاً بعضُكم لبعضٍ عدوٌّ فإمّا يأتينَّكم منّي هُدىً فمن اتَّبعَ هُدايَ فلا يَضِلُّ ولا يشقى...﴾.

وهكذا يبدو من هذه الآيات أنّ القرآن لا يقول بالشرّ المطلَق أو بالجوهر الشرير. بل هناك الخير والشر النسْبيان. والكفر رأس الشرور كما يذكر القرآن، إنه إنكار وجود الله، أو إنكار وحْيه الذي أنزله على الأنبياء لهداية الناس. ويقترن الكفر بخصلتين شديدتي السوء المعصية والكبرياء أو الغرور. أما رأسُ خصال الخير فالإيمانُ بالله، الذي خلق العالَمَ والإنسان، والذي يريد من الإنسان أن يعبده ويطيعه. جاء في القرآن الكريم[3]: ﴿إنّ الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنّم خالدين فيها أولئك هم **شرُّ البَرِيّةُ**. إنّ الذين آمنوا

(1) أنظر عن تلك الثنائية ومدلولاتها «The Basic Moral Dichotomy» T. Izutsu; op.cit. 105-116:

(2) سورة طه/ 115.

(3) سورة البيِّنة 6 ـ 7. وانظر عن ثنائيات الخير والشر، والكفر والإيمان، والهدى والضلال؛ T. Izutsu; op.cit. 124-127, 217-221.

وعملوا الصالحات أولئك هم خيرُ البريّة. جزاؤهم عند ربِّهم جنَّاتُ عَدْنٍ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها أبدا...﴾.

واستناداً إلى هذه الرؤية لخَلْق العالم والإنسان، وعلاقة الإنسان بالله؛ يرى القرآن أنّ الرجل والمرأة إمّا أن يكونا مؤمنين، فيكونان خيِّرين، ويدخلان الجنَّة مخلّدين فيها. أو يتنكرا لوحي الله ورسالاته فيرتكبان بذلك الشرور ويدخلان النار. فالمرأة مُساويةٌ للرجل في أَصْل الخَلْق: ﴿خلقكم من نفسٍ واحدة﴾، والله هو الخالق[1]. وهما متساويان في إمكانيات التمييز بين الخير والشرّ والهدى والضلال من الناحيتين العقلية والأخلاقية. والقرآن يخاطب المؤمنين من الرجال، والمؤمنات من النساء على قَدَم المساواة[2].

وتُظهِرُنا القصةُ القرآنيةُ لخروج آدم من الجنّة مع زوجته (التي لا تُذْكَرُ بالاسم) على بساطةٍ في العرض والحبكة والنتائج. فليست هناك خطيئةٌ أصليةٌ ولا ما يشبهُها. كُلُّ ما في الأمر أنّ الله «عَهِدَ لآدم» بمعنى أنه أطلعه على ما يَنفعُهُ ويضرُّهُ، بل إنه حذَّره من إبليس الذي أبى السجودَ له منذ البداية. لكنّ آدَمَ نَسيَ، ولم يُظْهِرُ عَزْماً كافياً في اتّباع الأوامر والنواهي بحيث يستمرُّ في الجنَّة مع زوجه. وكنتيجةٍ لهذا النسيان، وتلك العزيمة الخائرة استطاع عدوُّهُ الشيطان أن يُضِلَّهُ. بيد أنّ الله الذي غضب لمعصية آدم عاد فتاب عليه، وأرسل لأعقابه في هذا العالَم الرسالات والأنبياء لكي يسلكوا طريق الهدى من جديد، فيعودوا إلى الجنَّة. فحوَّاء في قصة القرآن للخروج من الجنَّة لا تتحمل أية مسؤوليةٍ خاصَّةٍ كما في اليهودية والمسيحية، فليست هي التي أضلَّت آدم؛ بل إنّ آدم هو الذي يتحمَّل المسؤولية الرئيسية وهي إنما اتبعته وسارت معه. فموقع حوَّاء في القصة القرآنية مختلفٌ تماماً عن موقعها في القصة التوراتية. ولا علاقة طبعاً بين حواء القرآنية وموقع المرأة في الزرادشتية الزروانية باعتبارها جزءًا من عالم الشرّ والأداة الأساسية للشيطان فيه.

(1) سورة الليل/ 3.

(2) سورة البروج/ 10.

مما سبق يتبين أنّ الإسلام من خلال القرآن ناقَضَ الموقف الزرادشتي من مشكلة الشرّ، كما ناقض الموقفين الزرادشتي واليهودي ـ المسيحي من المرأة ترتيباً على دورها في قصَّة الخَلْق. بيد أنّ هذه الرؤية المرفوضة من جانب القرآن وجدت مدخلاً لها للعالم الثقافي الإسلامي في القرن الحادي عشر الميلادي من خلال المفكّر المسلم المشهور أبي حامد الغزالي (ـ 1111) الإيرانيّ الأصل.

تبدو رؤية الغزالي للشرّ وأدواته ـ الغريبة عن العالم الثقافي الإسلامي ـ في الفصول التي عقدها لذلك في كتابه المشهور: «إحياء علوم الدين». إذ يتحدّث الغزالي عن المسائل المؤدية إلى الشرور والذنوب في (باب كسر الشهوتين) ضمن الكتاب الثالث من كتب (إحياء علوم الدين) العشرة. وفي فقراته تلك لاحَظْتُ أنّ صورته عن الشيطان والمرأة شديدة الشبه بصورتيهما في الزرادشتية الجديدة، بحيث لا يمكن تجنُّب التوصُّل إلى استنتاج مؤدَّاهُ أنَّ الغزالي تأثّر في رؤيته تلك بالمأثورات الزرادشتية المتأخِّرة. وقبل المُضيّ في بحث بعض أجزاء تلك الرؤية يحسُنُ أن نُذكِّرَ هنا بأنّ الغزاليّ فارسيُّ الأصل والنشأة الثقافية. وهو أولُ مفكّري الإسلام الكبار الذين يمكن أن يقال ذلك عنهم إذ إنّ المفسِّرين والمحدِّثين وعلماء الكلام قبله كانوا من نتاج البيئات العربية/الإسلامية، ولا يعرفون التراث الإيراني القديم بالقدر الذي يمكن أن يتأثّروا به. فالذي يبدو أنّ الغزاليّ كان أولَ مَنْ فهم مسألة «الشر» وعلاقة المرأة بها بهذه الطريقة، وأنّ ذلك كان بتأثير المتوارَث عن الزرادشتية من أفكارٍ ورؤىً ومأثورات.

الشرّ عند الغزالي ـ بخلاف ما هو عليه الحال في القرآن ـ ذو وجودٍ قويٍّ ومستقلٍّ. واسمه الذي يُرْمَزُ إليه به ـ كما في القرآن ـ هو الشيطان أو إبليس. ويملك الشيطان هذا جيشاً ضخماً يُعاونُهُ في إضلال البشر، ونشر السوء في العالم، إنه جيش (الشَهَوات). والشهوات المُضِلَّة أنواعٌ متعددة أولها: **شهوة الفرج**، التي تجسِّدُها المرأة. ثم هناك الغَضَب باعتباره أحد الأنواع المؤثِّرة في الإضلال. وهذا التحديد للشرّ مُطابقٌ تماماً لِما وَرَدَ في الزرادشتية المتأخِّرة التي تقول إنَّ اللذّة الجنسية هي رأس الشرّ، كما أنّ الغضب يشكِّل إحدى خصائصه الأساسية، بحيث كان الخائفون من الشرّ الغاضب يقدّمون له

الأضاحي من أجل التخفيف من حَنَقِهِ وكسْر حِدَّة شِرَّته[1]. يقول الغزالي[2]: «أما بعد؛ فأعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن فبها أُخرج آدم عليه السلام وحواء من دار القرار إلى دار الذل والافتقار. إذ نُهيا عن أكل الشجرة فغلبتهما شهواتهما حتى أكلا منها فبدت لهما سوءاتُهما. والبطن على التحقيق ينبوع الشهوات ومنبت الأدوَاء والآفات إذ تتبع شهوتَهُ شهوةَ الفرج وشدة الشَبَق إلى المنكوحات. ثم تتبع شهوة الطعام والنكاح شدة الرغبة في الجاه والمال اللذين هما وسيلةٌ إلى التوسع في المنكوحات والمطعومات. ثم يتبع استكثار المال والجاه أنواع الرعونات وضروب المنافسات والمحاسدات. ثم يتولد بينهما آفة الرياء وغائلة التفاخر والتكاثر والكبرياء. ثم يتداعى ذلك إلى الحقد والحسد والعداوة والبغضاء...».

وفي الكتاب نفسه، الذي يجري فيه الحديث عن الشهوة الجنسية (القول في شهوة الفرج)، يتابع الغزالي قائلاً[3]: «... وقد قيل: إذا قام ذكَر الرجل ذهب ثُلُثا عقله... وقال عليه السلام: النساء حبائل الشيطان... وقال بعضهم إنّ الشيطان يقول للمرأة: أنتِ نصف جندي وأنتِ سهمي الذي أرمي به فلا أُخطىءُ، وأنتِ موضع سرّي، وأنتِ رسولي في حاجتي...».

ويشرح الغزالي ما يعتبره رسالة الشيطان أو مقولته للمرأة فيذكر: «فنصف جنده الشهوة، ونصف جنده الغضب. وأعظم الشهوات شهوة النساء...».

وفي محاولةٍ من جانب الغزالي لإظهار إسلامية نظرته للشرّ والمرأة، بَحَثَ طويلاً عن آيةٍ قرآنيةٍ يمكن أن تدعم وجهة نظره. وعندما لم يجدْ ما أراد، لجأ لتفسير القرآن. وقد وجد ضالَّتَه في تفسير آيةٍ تتحدَّث عن شرٍّ غير محدَّد، ولا يتّضح معنى بعض ألفاظها من السياق. وهكذا عمد لتفسير تلك الآية تفسيراً يسوِّغ رؤيته

---

(1) Geo Widengren; op.cit.49

(2) الغزالي: إحياء علوم الدين، الطبعة الثانية بالمطبعة الأزهرية بالقاهرة، 1316 هـ، م 3/ ص68: «كتاب كسر الشهوتين وهو الكتاب الثالث من رُبع المُهْلِكات». والمَعنيُّ بالشهوتين، شهوة البطن وشهوة الفرج.

(3) إحياء علوم الدين 3/ 84 ـ 85.

المتأثرة بالزرادشتية. وجد الغزالي ضالَّتَهُ في سورة الفَلَق[1]، وهي السورة قبل الأخيرة في الترتيب العثماني للقرآن، ويطلق عليها علماء القرآن وعلى سورة الناس التي تأتي بعدها مباشرةً باعتبارها آخِر السُوَر القرآنية اسم: المعوِّذتين؛ لمضمونهما الذي يتضمن دعاءً وعياذاً بالله من مزعجات الحياة اليومية[2]. ونصُّ سورة الفَلَق: ﴿قل أعوذُ بربِّ الفَلق. من شرِّ ما خَلَق. ومن شرِّ غاسقٍ إذا وقب. ومن شرّ النفّاثات في العُقَد. ومن شرّ حاسدٍ إذا حَسَد﴾. وجد الغزالي ضالَّتَهُ كما قلتُ في هذه السورة، وفي مفرد «غاسق» بالتحديد. أما مفسّرو القرآن التقليديون مثل الطبري[3] وفخر الدين الرازي[4] والبيضاوي[5] فيفسّرون الكلمة بأنها الليل. ثم يضيفون احتمالين آخرين من عالم الأفلاك: القمر أو أحد النجوم. لكنّ الغزاليّ يستغلُّ غموضَ اللفظة ليفسِّرها بخلافهم جميعاً بأنها تعني «الذكَر». أي عضو الرجل التناسلي. فيصبح معنى الآية عنده الاستعاذة من شرِّ الذكَر إذا وَلَج. ثم يَنْسِبُ الغزاليُّ هذا التفسير للغاسق إلى النبيِّ روايةً عن ابن عباس، مفسِّر القرآن المشهور. وهذا مع أنّ المفسِّرين الآخرين وعلى رأسهم الطبري يذكرون عن ابن عباس تفسيره للغاسق بأنه الليل[6]!

بذلك يكون الغزالي قد تبنَّى الرؤية الزرادشتية لوجود الشرّ، وحاول إدخالها ضمن المفهوم القرآني للخَلْق وطبيعة المعصية، عندما زعم مثل الزرادشتية المتأخِّرة تماماً أن المرأة أداة الشيطان، وأنَّ الشهوة الجنسية رأس الشرور. وإذا كان واضحاً من قصة الخَلْق القرآنية أنّ القرآن لا يعتبر حواء أداةَ إضلالٍ

(1) إحياء علوم الدين 3/ 84.

(2) التفسير الكبير لفخر الدين الرازي، م 32، ص 189 ـ 199.

(3) تفسير الطبري م 29، ص 351 ـ 353 تفسير (الغاسق) بأنه الليل، ينسبه الطبري إلى ابن عباس والحسن البصري ومحمد بن كعب القرظي ومجاهد بن جبر. ويضيف الطبري أنَّ المفسّرين الآخرين يذكرون القمر أو أحد النجوم.

(4) تفسير الفخر الرازي 32/ 194 ـ 195 لا يذكر إلاّ التفسير بالليل.

(5) تفسير البيضاوي 2/ 673 يذكر التفسير بالليل وبالقمر.

(6) قارن بالحاشية رقم 3 من هذه الصفحة.

آدم؛ فإنه واضحٌ أيضاً أنّ القرآن والإسلام ـ بخلاف الزرادشتية وبعض الاتجاهات المسيحية ـ لا يتنكران للجنس كما لا يعتبرانه شراً أو إجراماً. فالزواج مستحبٌّ في الإسلام، والنبيُّ محمدٌ نفسه تزوج اثنتي عشرة امرأةً، وجمع بين تسع نساء. وفي القرآن[1]: ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كلّ مسجدٍ وكُلُوا واشربوا ولا تُسرفوا إنه لا يُحبُّ المُسْرِفين. قُلْ مَنْ حَرَّم زينةَ الله التي أخرجَ لعباده والطيِّبات من الرزق. قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصةً يوم القيامة. كذلك نفَصِّلُ الآياتِ لقومٍ يعلمون﴾.

وعلى الشهوة الجنسية باعتبارها رأس الشرور، يرتّب الغزالي كلَّ الشرور الفرعية الأخرى. فالجنس والميلُ إليه يؤدي إلى الطمع وطلب المال والثروة لأنهما الوسيلة لإرضاء تلك الغريزة. والشَرَهُ في طلب المال والغنى يؤدّي إلى النِفاق، والكبرياء، والعنجهية، وسوء الخُلُق، والحسد، والعداوة، والكراهية... الخ. لذلك فإنه عندما وصل بالغزالي البحث إلى (باب النكاح) اضطُرّ لتبنّي الرؤية المسيحية المتقشّفة بشأنه بالقول إنه لا علاقة بين الزواج والإرضاء الجنسي. وإنكارُ الشهوة الجنسية بهذا الشكل أمرٌ غير معروفٍ ولا مشروع إسلامياً بل هو من مخلَّفات الديانة الإيرانية القديمة.

كان هذا عرضاً موجزاً لرؤية الغزالي، المفكر الإسلامي الشهير في العصور الوسطى، للمرأة ودورها في المجتمع الإسلامي وفي التاريخ البشري العامّ؛ من وجهة نظرٍ اعتبرها الغزالي نظرة القرآن والإسلام ـ واكتشفنا نحن أنها ليست رؤية الإسلام بل هي رؤيةُ الزرادشتية المتأخرة المتأثرة بالزروانية. وقد يعرض هنا تساؤلٌ عن أسباب لجوء الغزالي لهذه الرؤية غير الإسلامية، وعِلَل محاولته إلباسها لباساً إسلامياً بل قرآنياً. إنّ الأمر يحتاج إلى تبسُّطٍ أكثر؛ لكنْ ربما أمكن مبدئياً الإجابةُ بأنّ الغزاليّ كان ينتمي إلى اتجاهٍ ضمن التصوف الإسلامي، يرى التزهُّدَ في العالم، والابتعادَ عن مغرياته، ويحاولُ إدخالَ ذلك باعتباره الرؤية الإسلامية للعالم. وهذا الرفض للدنيا، ولوجوه الاستمتاع بها المفروض أنه يؤدي إلى تركيز التوجُّه لله وحده. والغزالي يرى أنّ الاستمتاع بالحياة، وبالمرأة، وبالجنس، وبالطعام؛ كلُّ ذلك خَطِرٌ إذ إنه يصرفُ عن الله، ويوقع بالتالي في الضلال والهلاك.

(1) سورة الأعراف/ 30 ـ 31.